الذئاب ولا الناس

تضرب المثل بغدر الذئاب وشراستها وبأنها لا يأتمر بعضها بعضاً وتقول انها تسير في غدواتها وروحاتها صفاً واحداً كشفاً لكشف لئلاَّ يغدر متأخرها بمتقدمها . وتشبه بها اشرار الناس والغادرين والذين يأكل بعضهم بعضاً وفي ذلك يقول احد الشعراء

وكنت كذئب السوء لما رأى دماً لصاحبه يوماً احال على الدم

اشارة الى ما يقولهُ الجمهور من غدر الذئاب وقد اشار اليهِ الامام النويري حيث قال والذئب اذا كدَّهُ الجوع فتجتمع لهُ الذئاب ويقف بعضها الى بعض فمن ولَّى منها وثب اليهِ الباقون واكلوهُ . واذا عرض للانسان وخاف العجز منهُ عوى عواء استغاثة فتسمعهُ الذئاب فتقبل على الانسان اقبالاً واحداً وهم سواء في الحرص على أكلهِ فان ادرى الانسان واحداً منها وثب الباقون على المدى فمزقوهُ وتركوا الانسان . وقال الاخر

ليت شعري كيف الخلاص من النا س وقد اصبحوا ذئاب اعتداء

وقالوا اغدر من ذئب واخبث واخون واعتى واظلم واجرأ وانشط واوقح واجسر وايقظ واعق واجوع والأم من ذئب . وقالوا من استرعى الذئب فقد ظلم . ولكن الذين بحثوا في طبائع الحيوان ورأوا الذئاب في مسارحها وراقبوها في غدواتها وروحاتها يقولون ان تشبيه الاشرار بها ظلم لها وحطٌّ من قدرها ولو سمعت لها محاكم التقاضي لحكمت على المشبِّه بالقذف وعاقبته عقاب القاذفين فان الذئاب لا تحتكر الطعام كما يفعل محتكرو الحنطة حتى يغتنوا بغلائها ولو مات الفقراء جوعاً ولا يقوم اقوياؤها على ضعفائها فيقتلونهم قتلاً كباراً وصغاراً ذكوراً واناثاً اطاعةً لامر حاكم ظالم وسلطان مستبد كما فعل العثمانيون بعضهم ببعض

هل حدث بين الذئاب او بين كل وحوش الغاب ما حدث في مذابح سورية او مذابح ارمينية تؤتى المرأة بزوجها فيذبح على ركبتها ثم تؤتى باولادها فيذبحون امامها الواحد بعد الآخر ويؤخذ طفلها من يدها ويشطر شطرين

هل رأت الذئاب في فلواتها ذئباً شديد الدهاء واسع الحيلة يخدعها ويحتكر طعامها لكي يميتها جوعاً ويعيش هو بلا تعب ولا نصب . كتب بعضهم في جريدة الاستقلال الاميركية يقول درست طبائع الذئاب في الاصقاع الشمالية سنين كثيرة فلم ارَ فيها ما يجيز لنا ان نشبه

بها الاشرار الذين يظلم بعضهم بعضاً ويهتضم بعضهم حقوق البعض الآخر. فالذئاب لا يقتل بعضها بعضاً ولا يسرق بعضها من بعض ولا يختلس بعضها ما لغيره ولا تحتكر الطعام وتمنع غيرها من مشاركتها فيه. واذا افترس ذئب غزالاً وسوّلت لهُ نفسهُ ان يحتكرهُ ويمنع غيرهُ من مشاركته فيه وثب عليهِ جارهُ واخذ بخناقهِ كأنهُ يقول لهُ لا احتكار في الطعام فهو قوام الحياة والحقوق فيهِ طبيعية متساوية. يفعل ذلك من غير تذمُّر ولا انذار لعلمهِ ان الاقوال لا تغني عن الافعال متى كان في الامر موت وحياة

ويظهر من بحث هذا الكاتب وبحث غيره ان الذئاب لا تتناظر بل تتشارك وتتعاون والاشتراكية عندها افضل من الاشتراكية التي ينادي بها علماء الاجتماع الانساني لانها مبنية على الحقوق الطبيعية المحضة وقد ترقّت وتمحصت بناموس بقاء الاصلح من غير تعمُّل ولا تصنع

ترى في كتب القصص وما كتب في طبائع الحيوان ان الذئاب تسير في آجال وقائدها اكبرها جرماً واشدها بطشاً وانهُ نال السيادة بقوة ساعديهِ وناييهِ بعد ان قهر الخصوم وجرّعها المنون حتى لم يبقَ لهُ منازع ولا مزاحم. ولكن الامر ليس كذلك بل الزعامة في آجال الذئاب لام الصغار وزوجها يعينها بافتراس الفرائس لاولادها. والغالب بين ذئاب البلدان الشمالية ان يكون في كل اجل من آجالها خمسة الى اثني عشر ذئباً والمقام الاول فيهِ للام فهي ترشدهُ في روحانيهِ وعدوانهِ وافرادهُ لا تعصي لها امراً مشيئتها شريعة لهنَّ لا تنقض كشريعة مادي وفارس وهي تسير في صدر الاجل ويتبعها اصغر اولادها سناً لانهنَّ الى ارشادها احوج والاَّ وقعن في مهالك فاكل ما لا يصلح لهنَّ من الطعام ولو كان مما زعافاً ودخلن في كل مأزق يعسر عليهنَّ الخروج منهُ وسعينَ باقدامهنَّ الى الفخاخ والشباك. ويلي هؤلاء اولاد السنة السابقة لانهنَّ يكنَّ اقل من اخواتهنَّ حاجة الى العناية والارشاد

واذا مرض ذئب او جرح لم تثب عليهِ الذئاب لتفترسهُ كما يفعل الناس باخوتهم المستضعفين بل اجتمعت حولهُ ورثت لبلواهُ

فاغضى واغضت واتسى واتست بهِ مراميل عزاها وعزتهُ مرمل

على ما قالهُ الشنفرى شاعر العرب الذي كان يعرف من طباع الذئاب اكثر مما عرف منها القزويني والدميري لانهُ رآها مرأى العين ودرس افعالها واطوارها. وتحاول اولاً ان تعرف ما هو مصاب الجريح او المريض ومما شكواهُ اما هو فيرى ان الشكوى لا تجديهِ غير التأمي فيخرج من بينها ويمضي لطيتهِ حتى اذا اشتدَّ بهِ الالم رفع رأسهُ وعوى نجيبةً عاويةً مثلهُ لكنهُ يرى ان عواءها لا يجدي فيبقى سائراً الى ان يجد كهفاً يلجأ اليهِ ويجلس فيهِ يلحس جرحهُ

كأنه يعلم ان الراحة خير دواء طبيبي والتعاب من احسن علاج لميكروبات الفساد وكأنها هي تعلم ذلك ايضاً فلا تتبعهُ لتزعجهُ وتقلقهُ بل تمضي لشأنها تفتش عن طعامها وطعامهِ فيعلم هو اين صارت وكما جاع اقتفى اثرها واكل من الصيد الذي اصطادتهُ لها ولهُ

واذا التقى ذئبان اشتد بهما الجوع لم يهجم احدهما على الآخر ويأخذ بخناقهِ بل تعارفا تعارف الاصدقاء او المعارف وسارا معاً في طلب الصيد فاذا كان الطريق واسعاً سارا جنباً لجنب واذا كان ضيقاً او كانت الارض مغطاة بالثلج سار احدهما امام الآخر وقد يختفي احدهما في كمين ويسير الآخر وراء الصيد ويلجئهُ الى الوقوع في الكمين حيث رفيقهُ فيقبض عليهِ ويكون للاثنين معاً للساعي والقاعد ولو كان الاثنان من سربين مختلفين

وهذا شأن الذئاب اذا طاردت ظبياً من الظباء السريعة العدو التي لا يلحقها حيوان مهما كان سريعاً فانها تنقسم وتكمن لهُ في اماكن مختلفة وتطاردهُ مناوبةً وتبقيهِ في البقعة التي هي فيها وكلما حاول الخروج منها نهض ذئب من كمينهِ وردَّهُ اليها الى ان يعييهُ التعب ويقع فريسة لها فتفتحهُ جزاء تعبها ولا تختصم في ما بينها وقت اقتسام لحمهِ ولا يظلم احدها الآخر بل تأكل كلها منهُ على السواء كانها ابناء عائلة واحدة . تفعل ذلك لا عن فكر وروية ولا جرياً على قانون سنتهُ لنفسها او اقتبستهُ من غيرها كما اقتبسنا قوانين تبوليون تناسبنا حالنا او لم تناسبهُ بل تفعلهُ منقادة لقانون الطبيعة قانون الاشتراك والتعاون

فقولهم في الامثال هؤلاء مثل الذئاب يأكل بعضهم بعضاً قول بعيد عن محجة الصواب يحق للذئاب ان تلوم قائلهُ وتقيم الحجة عليهِ . ولو جرى الناس على نلموس الطبيعة وتعاونوا وتناصروا لاتقى من بينهم هذا التنازع المهيب ولما رأيت فيهم قوماً يقومون على اخوانهم ويذبحونهم ذبح الاغنام لا ليسدوا جوعاً ولا ليثأروا دماً ولا ليدفعوا عن عرض بل ليطيعوا امر حاكم ظالم وينهبوا بضاعة وامتعة او ليتزلفوا الى الله بقتل المخالفين لهم في الدين

« وما ذئبان جائعان أُرسلا في زريبة غنم بافسد لها من حرص الرجل على المال والشرف لدينهِ » كما روى ابن ماجه والبيهقي عن كعب بن مالك وقال حديث صحيح حسن . فان كان الحرص على المال والشرف يفسد الدين فكيف بالحرص على طاعة اوامر الظالمين وكيف بدعي قوم انهُ من الدين او في سبيل الدين

ان الذئب لأرأف بالذئب من الانسان باخيهِ الا من اصلح الشوء من الناس